# الفصل الرابع

## الواقع لا تدفنه الغيبيات ولا يغيره الكذب

### الدعوة ثورة

رأينا فيما سبق من البحث أن ثورة اخناتون التوحيدية كانت في نهاية الأسرة الثامنة عشرة بينما قدرنا أن ثورة موسى كانت في نهاية الأسرة التاسعة عشرة في ظروف اختلال النظام وانتشار الفوضى قبل توطد حكم الأسرة العشرين في مصر. وقلنا أن موسى كان له نشاط تنظيمي قبل الجهر بدعوته أدى به إلى اللجوء إلى مدين بلد النبي شعيب في سيناء. ثم أنه عاد إلى مصر عند تغير الأحوال فيها. واستشهدنا على ذلك ببعض فقرات من التوراة من المفيد اعادة سردها هنا مع غيرها من الفقرات الأخرى من هذا الكتاب المقدس: «وكان بعد أيام كثيرة أن ملك مصر مات. . فمضى موسى ورجع إلى يترُو (شعيب) حميه فقال له إني منطلق فراجع إلى إخوتي الذين في مصر لأنظر هل هم باقون فقال يترُو لموسى اذهب بسلام. فقال الرب لموسى بمدين امضِ فارجع إلى مصر فإنه قد مات جميع القوم الذين يطلبون نفسك (يلاحقونك). . وقال الرب لهرون امضِ للقاء موسى في البرية. فمضى ولقيه في جبل الله فَقَبَّلَهُ. . » وهذه فقرات من سفر الخروج تصف تماماً غيبة قائد ثائر على الظلم في المنفى طوال عهد نظام يطارده ثم عودته إلى إخوته في الجهاد ليرى ما حل بهم وبتنظيمهم طوال مدة الغيبة ليستأنف الكفاح معهم. فيستقبله «الوكيل» هرون خارج البلد، في جبل الله، وبعد ذلك تتم اجتماعات لقادة التنظيم بموسى، كما هو واضح في الفقرات الأخيرة من الفصل الرابع من سفر الخروج، حيث يطلعونه على أحوالهم وعلى الوضع العام. وهو من جهته يطلعهم على ما أوحي إليه في منفاه الآنف الذكر من وجوب العمل على الخلاص من عذاب العبودية في تلك الظروف التي غدت ملائمة نسبياً لمثل هذا العمل: الظروف التي أصبح النظام فيها ضعيفاً يستشري فيه الفساد في داخل مصر ويشجع الطامعين في ثروات هذا البلد كاللوبيين و «أقوام البحر» الفلسطينيين الآتين من جهات كريت الذين كانوا في تلك الأثناء يشنون الغارات هناك.

إن سفر الخروج، عندما نجرده من الغيبيات، يصور لنا بشكل مباشر حيناً وبشكل رمزي حيناً آخر صراعاً حاداً نشب بين جهاز يرأسه مستغل وبين عبيد ومسخرين. فتبدأ القصة بمقابلة تقدم فيها «زعيما» حركة، موسى وهارون، «باحتجاج» على سوء المعاملة التي يلقاها الشعب، وطالباً بمنح الكادحين أيام عطلة يستريحون فيها، أيام أعياد. لقد طالبا بثلاثة أيام يذبح فيها الشعب للرب في البرية. فالمسخر والعبد في تلك الأيام كان بالكاد يمنح وقتاً للراحة، وما كان يملك وقتاً يعتني فيه بجسمه. وأيام العطل كانت غير

معروفة لهذه الفئة من الناس. ويصف ديودور الصقلي المعدنين في مصر عام ٥٦ ق.م. فيقول، كما ورد في قصة الحضارة: «. . وإذا كان هؤلاء العمال عاجزين عن العناية بأجسامهم، وليس لهم ثياب تستر عريهم، فإن كل من يرى هؤلاء البائسين المنكودي الحظ تأخذه الرحمة بهم لفرط شقائهم ـ ذلك لأنه لا يرى أحداً يرحم المرضى والمشوهين والعجزة والضعاف من النساء، أو يخفف عنهم العمل، ولكن هؤلاء كلهم يلزمون بالدأب على العمل حتى تخور قواهم. . .». وقد كان هذا في عام ٥٦ ق.م. فكيف كان الحال في زمن يتقدم عليه في عبودية الرق بأكثر من اثني عشر قرناً؟. . يكفي من الشقاء ما يصوره هذا الوصف. . ومما لا ريب فيه أن المبالغة الكبيرة في تقديس الراحة يوم السبت عند اليهود تعكس النقيض الذي كان يجري في طور الرق الذي قامت فيه دعوة موسى: التزام المسخر والعبد بالسياط إذا لزم الأمر بالدأب على العمل حتى انحلال قواه انحلالاً تاماً. فكان إذن مطلب تخفيف وتيرة العمل ومنح الكادحين يوم عطلة اسبوعية وأيام أعياد يستريحون فيها المطلب الشعبي الأول. كما كان الفرح بيوم العطلة، بيوم الانعتاق من العمل (ولو لفترة الراحة فقط) يعادل نقيضه من حيث الشدة، يعادل عذاب العمل المرير فيبلغ حد النعيم.

ولننظر إلى وصف تلك المقابلة التي تمت بين موسى وهارون من جهة وبين الفرعون من جهة أخرى، فنقرأ في الفصل الخامس من سفر الخروج ما يلي: «. . دخل موسى وهرون وقالا لفرعون كذا قال الرب إله اسرائيل أطلق شعبي لكي يعيدوا لي في البرية. . فقال لهما ملك مصر لماذا يا موسى وهرون تعطلان الشعب عن أعمالهم امضوا إلى أثقالكم (أشغالكم) وقال فرعون هوذا كثر شعب الأرض فكيف أرحتماهم من الأعمال. . .». فالتعييد للرب، كما يتضح من جواب فرعون في هذه العبارة هو التعطيل والراحة من العمل. ولكن الفرعون، ككل طاغية يتحسب من أقل بادرة ثورية، أمر بتشديد العمل بدلاً من تخفيفه وذلك كي يمنع كل امكان مادي لأي لقاء كان يمكن أن يتم بين الناس المسحوقين بالعمل وبين قادتهم (محرضيهم) ولكي ينشغل أيضاً أولئك الكادحون عن أن يقابل بعضهم بعضاً فيتشاكوا همومهم. فنقرأ مثلاً في ذات الفصل من التوراة: «ليثقل العمل على الشعب فيشتغلوا به ولا يلتفتوا إلى كلام الكذب». .

ونقرأ في الفصل الآنف الذكر من التوراة أموراً نجد ما يماثلها في الآثار التي اكتشفت في الحفريات. تقول التوراة مثلاً: «قالا (موسى وهرون). . فنذهب مسيرة ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب لألهنا. . .». بينما نجد على أثر فرعوني في المتحف البريطاني وهو لوحة طباشيرية سجل فيها أحد رؤساء العمال أسماء ثلاثة وأربعين عاملاً فذكر غياب بعضهم عن العمل وأسباب هذا الغياب التي من جملتها «التضحية للإله». ونجد أيضاً في فصل التوراة الذي نحن بصدده ما يقابل رئيس العمال الآنف الذكر وما يقابل المهام الموكولة إليه: «فخرج مسخرو الشعب ومدبروهم وخاطبوا الشعب قائلين كذا قال فرعون لست أعطيكم تبناً». فالمسخرون (بكسر الخاء) هم جند فرعون (أورب العمل) كما يتضح من قراءة فصل التوراة، وكانت مهمتهم مراقبة العمل وانزال العقاب «بالمقصرين» أما المدبرون فهم رؤساء العمال الذين كان على كل واحد منهم ضبط الدوام (مسك لوحة الحضور والغياب الآنفة الذكر) بدلالة الفقرة التالية من التوراة «وضُرب مدبروا بني اسرائيل الذين ولاهم عليهم مسخرو فرعون وقيل لهم ما بالكم لم تكملوا فريضتكم من عمل اللبن أمس واليوم مثل أمس فما قبل».

فالأمر اذن لا يخرج عن نطاق العمل والسخرة، وعن نطاق ما ينشأ من هذا من تناقض وخلاف بين رب

العمل وبين من سخر للقيام به. وقد اندلع الاضطراب كما نرى بوضوح (بعد اسقاط الغيبيات ولغو الكلام من النصوص التي استشهدنا بها أعلاه) بتقدم «زعيمين» مناضلين بطلب إلى رب العمل (إلى الفرعون) ليمنح هذا الأخير المسخرين أيام عطل وراحة. وهنا نلاحظ أمراً يدل على أن أولئك المسخرين كانوا حينذاك منظمين وأن تنظيماتهم كانت من القوة بحيث اعترفت (ولو من الناحية الواقعية) السلطات الرسمية بها، بدلالة قبول «الفرعون» استقبال ممثليها موسى وهرون ودخوله معهما في مناقشات ومساجلات طويلة. وليس من المستبعد في هذه الحال أن يتجرأ العبيد على مناصرة تلك التنظيمات والالتحاق بها بأعداد كبيرة.

لقد كان للمطالب التي تقدم بها موسى وهرون إلى الفرعون مضاعفاتها الخطيرة التي لم تتوقف في النتيجة عند تخفيف وتيرة العمل والحصول على أيام الأعياد والعطل، بل تصاعدت حتى بلغت مبلغ الثورة العارمة من أجل الخلاص من ذلك الظلم بكليته، من ذلك النظام الفرعوني.

إن العصا التي كان يمسك بها كهنة فرعون وسحرته وجنده «ليحرك» بها هؤلاء عضلات المسخرين والعبيد لانتاج مختلف القيم كان لها شأن خطير وما يزال في حضارات العبودية على اختلاف أشكالها وألوانها. ولقد أفرد لها الجاحظ في كتابه الشهير «البيان والتبيين» فصلاً خاصاً يستجلي فيه منافعها واستعمالاتها بل إنها كانت إلى جانب الحجر أول أداة أخذ بها الانسان في مسيرته الطويلة الصاعدة نحو التقدم والرقي. فبالعصا دافع الانسان عن نفسه ضد الأفاعي والوحوش، ومنها صنعت مختلف الأسلحة كالرماح والدبابيس والقسي والنبال والحراب، ومختلف الأدوات كالسلالم والفؤوس والرفوش والمحاريث البدائية وعمد الخيام وسقوف الأكواخ، وبأربعة عصي صنع الانسان إطار النول، وبعود صنع مغزله إلخ. فيمكننا أن نقول أن حضارة الانسان كانت طوال عصور مديدة حضارة العصا: كانت العصى على اختلاف أشكالها في يد العبد والمسخر للعمل وفي ظهريهما لحثهما على العمل. وقد أمسك موسى «بالعصا» وسلح بها الثوار من الشعب، حرض المسحوقين بالعصا ليأخذوا بالعصى على أيدي مستعبديهم فإذا بهذه تبتلع تلك: آلاف عصي الشعب تُغْرِقُ عصي الأسياد الوثنيين فتكسرهما. فسال الدم حتى غطى أرض مصر: «.. ويكون دم في جميع أرض مصر وفي الخشب وفي الحجارة..» كما عبرت عنه ملاحم الشعب. أي تقطر بالدم العصي والحجارة التي كانت وماتزال سلاح المتظاهرين ضد السلطات الغاشمة، والتي هي اليوم سلاح الثوار الفلسطينيين أبناء موسى الحقيقيين أصحاب الأرض الذين يردون بها الأدعياء خدم أمريكا الخزر المتهودين عن أرضهم. وقد تعالت أصوات الاحتجاجات حتى ملأت الأسماع وأقضت المضاجع، بعد أن ثار الاستياء وانتشر في أوسع دوائر المجتمع حتى بلغ حاشية الملك بالذات. وقد عبرت التوراة عن هذا الأمر في الفصل الثامن من الخروج بالصورة التالية: «.. فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتنتشر في بيتك (في بيت فرعون) وفي مخدع فراشك..». واضرب عمال التنظيفات عن العمل فانتشر البعوض والذباب في الأرض التي اشتهر أهلها بحرصهم الشديد على النظافة التي تحميهم من الأوبئة والأمراض الفتاكة: «.. فكان البعوض على الناس والبهائم. كل تراب الأرض صار بعوضاً في جميع أرض مصر».

قلنا أن ما نقرأه في سفر الخروج من وصف للأزمة الاجتماعية الحادة ما هو في الواقع إلا ذكريات الأجيال (التي أتت فيما بعد) لكل تلك المظالم التي كانت تنزل بالشعب الكادح ولكل تلك الثورات التي كان يقوم بها ذلك الشعب رداً على تلك المظالم في طور تاريخي كامل وليس في زمن معين هو زمن الدعوة الموسوية مثلاً. كما

آن هذه الدعوة بلورت في النتيجة كل الثورات والانتفاضات التي سبق ان قام بها المسخرون والعبيد ضد مستغليهم. ومن ناحية أخرى نجد أن أولئك الثائرين كانوا من الأقوام القاطنة في الامبراطورية المصرية وحولها: من المصريين والكنعانيين والبابليين والآشوريين والبدو إلخ. . أي من المسخرين المصريين بغالبيتهم ثم من المسخرين والأرقاء من الأقوام العربية الأخرى المتواجدين في مصر حينذاك بنتيجة الهجرة للعمل أو بنتيجة الوقوع في الأسر في أثناء الحروب. ذلك لأن قسوة الاستغلال ما كانت تنزل فقط بفئة معينة من الطبقات الدنيا في المجتمع. وليس من المعقول الواقعي أن ذلك الظلم ما كان يستفز الافئة واحدة فقط (أن يشعر به فقط أولئك الذين أصبحوا يهوداً فيما بعد مثلاً) دون كل الفئات الأخرى. وكان بالتالي من الطبيعي أن تنتشر على الدوام فكرة الثورة على ذلك الواقع بين كل الكادحين من كل الأقوام وفي مقدمتهم المصريو الأصل الذين يشعرون بداهة بأن القضية تخصهم قبل غيرهم من الاغراب. أي باختصار كانت تلك الاضطرابات الاجتماعية طبقية وموجهة بشكل رئيسي ضد أشد الطبقات رجعية، ضد الكهنة مثلاً حراس الوثنية الجامدة المستعلية على الناس. ونختصر الكلام إذن فنقول أن ثورة موسى عليه السلام، التي تمثل كفاح المتضررين بنظام الرق السائد في جملة المجتمعات الانسانية في منطقة البحر الأبيض المتوسط طوال مرحلة تاريخية كاملة هي مرحلة الامبراطورية الفرعونية الحديثة الممتدة من أوائل القرن السادس عشر حتى أوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد، هذه الثورة تمثل صفحة مجيدة من صفحات كفاح أبناء الأقوام روافد الأمة العربية من أجل انهاء الطور العبودي للجملة المذكورة ودفعها نحو الأطوار العليا. فكم هو صغير تافه أمام هذه الأحداث الواقعية للتاريخ ما يحاول المزورون تصويره «بفئة مختارة» يلصقون بها صفات وهمية كاذبة علها تتجسد في مكان ما من الواقع. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يمتد التزوير ويتسع ليأتي غرباء تماماً، ليأتي الخزر المتهودون وأمثالهم، وينضموا إلى تلك الفئة ويصبحوا بدورهم «مختارين»، وما هم سوى عبيد لقوى عدوانية طامعة.

## الأسباط كتائب الثورة

بلغت الثورة حداً من الاتساع في الدعوة الموسوية اضطر معه الفرعون لأن يرضخ لطلب الخروج من مصر لكل الفئات الراغبة فيه. وكان ذلك الخروج منظماً على شكل كتائب، على شكل أسباط. ففي الفصل الأول من سفر العدد نجد موسى يعيد تنظيم جماعته بعد مضي سنة على وجودهم في سيناء على أساس تكتيب كل سبط بكتيبة واحدة بحيث يكون لديه احدى عشرة كتيبة مقاتلة مضافاً إليها كتيبة قيادة ينتمي إليها القائد ومعاونه وأركانه وهي كتيبة سبط اللاويين التي تؤمن مختلف الخدمات العامة للجماعة كلها وتسهر على معنوياتها وعقائدها بالاضافة إلى الوظائف المعروفة لمثل هذه الوحدة في الجماعات المقاتلة. ومما لا ريب فيه أن المسخرين من فقراء الصناع ومتوسطيهم والاجراء وشغيلة المواسم (الذين يقابلهم حالياً في مصر عمال التراحيل الزراعيين وكل عمل طارىء يدعون إليه) كانوا يقطنون الأحياء الفقيرة في كل بلد في مصر وخاصة في العاصمة التي كانت تكتظ بهم. ومما لا ريب فيه أن موسى قد أطلق على تلك الأحياء عند قيامه بعملية تنظيم أتباعه أسماء الأسباط أبناء يعقوب بن اسحق، كما أطلق اسم «اسرائيل» على تنظيمه كله، وذلك تيمناً بهذه الأسماء التي اشتهر أصحابها كأبطال اسطوريين جاهدوا ضد أنظمة الرق وضد الوثنية مرتكز هذه الأنظمة. وهذا لا يعني أبداً أن أولئك الأسباط هم أجداد من كان يقطن تلك الأحياء الفقيرة فقد سبق أن قلنا

أن أولئك الناس كانوا بغالبيتهم من المصريين مضافاً إليهم كل الآتين من أنحاء الامبراطورية للعمل والارتزاق في العاصمة. ثم إن تنظيم الجماعات على أساس أحيائهم يسهل قيادتهم ويزيد من تماسكهم ويجعل تحشدهم وتكتيبهم للعمل عند اللزوم آنياً. وهنالك قول ليوسفوس الكاهن والمؤرخ اليهودي الذي عاش في القرن الأول للميلاد يخبر فيه عن المؤرخ المصري مانيثون الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد أن موسى كاهن مصري كان يتردد على أحياء أولئك الفقراء للتبشير بينهم وتطبيبهم. فمن المستبعد أن يكون تبشير هذا الكاهن بالمعتقدات المصرية في ذلك العصر. فكهنة مصر حينذاك ما كانوا بحاجة للتبشير بمعتقداتهم بين فقراء المصريين وبيدهم سلطات نظام الرق الذي يضمن تبعية وطاعة أولئك المسخرين والعبيد. والمعقول أن يكون موسى «مبشراً» بعهد يتحرر فيه أولئك المسحوقون بنظام الرق من ربقة هذا النظام. ومن المؤكد أن يكون إنسان مثله من «تقدمي» ذلك العصر له تفكير يشبه تفكير جماعة ابراهيم الذي استمر دينه سارياً حتى قيام الدعوة الاسلامية وبعدها: أي أن يكون مجاهداً من أجل اقرار التوحيد ومساواة الناس في كل الأحوال أمام خالقهم والبدء بإنصاف المسحوقين بالنظام الوثني وتحريرهم من عبوديتهم الظالمة. فكان لذلك يتردد على تلك الأحياء الفقيرة وينشط بين سكانها وينظمهم ويطلق على فئاتهم وتنظيماتهم تلك الأسماء المألوفة والمحترمة في أوساط الثائرين على قهر الوثنيين، أسماء من سبقوا وجاهدوا من أجل رفع الظلم والشقاء عن كاهل الانسان. وكان في ذات الوقت يطبب مرضاهم ويساعد ضعفاءهم ويصلح ما أمكن من أحوالهم التعيسة بانتظار الأيام الحاسمة التي سيدعوهم بها إلى الثورة على عبودية الرق وأصحابها.

إن هذه الدعوة لها كل صفات الحركات الثورية. ففي أثناء توالي أحداثها في مصر قبل الخروج مثلاً، وأثناء الخروج، وبعد الاستقرار في سيناء، برزت الصعوبات كما تبرز في كل الثورات، وظهر المترددون والمتخاذلون. فنقرأ مثلاً في الفصل الخامس من سفر الخروج نماذج من الصعوبات التي قامت قبل الخروج من مصر: «فقالوا لهما (أي قال رؤساء الشعب لموسى وهرون) ينظر الرب ويحكم عليكما كما أفسدتما أمرنا عند فرعون وعند عبيده وجعلتما في أيديهم سيفاً ليقتلونا». وفي الفصل الرابع عشر من سفر الخروج نجد هذه الاشارة إلى صعوبة المسيرة في سيناء: «وقال لهما (لموسى وهرون) بنو اسرائيل ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر حيث كنا نجلس عند قدور اللحم ونأكل شبعنا فلم أخرجتمانا إلى هذه البرية (إلى سيناء) لتقتلا هذا الجمهور بالجوع». إن كل هذه الأمور: شكل الاستعدادات المشار إليها أعلاه، الأحداث، الآثار الباقية على قلتها، ما نقرأ في التوراة بعد إزاحة كل ما علق بها من أكوام الأوهام والمبالغات والوثنيات التي صار إليها واضعوها الذين كانوا يمثلون بأفكارهم مصالح دنيوية رجعية لا علاقة لها البتة بتلك الدعوة الثورة التي سبقت عصرهم بالعديد من القرون تغيرت فيها الدنيا ومن عليها، نقول إن كل هذه الأمور تبين بجلاء أن هذه الدعوة كانت من أجل الناس، من أجل خلاصهم، كانت باختصار ثورة، وما كانت من أجل قبضة من المتنفعين يترددون على قيادة فئة صغيرة طوال عشرات القرون ويسخرون ذكراها العطرة للحفاظ على منافعهم الصغيرة التافهة وهم لا يترددون من أجل هذا في سوق تلك الفئة وتجنيدها لخدمة من ثار على أمثالهم موسى عليه السلام، وقد فعلوا هذا باستمرار.

قلنا أن الظلم كان ينزل بكثير من الناس في نظام الرق وعلى الأخص بالمسخرين والعبيد، وليس فقط بجنس معين، بسلالة مزعومة مثلاً. وقلنا أيضاً أن الثورات والانتفاضات ومحاولات التخفيف من الظلم تتكرر طوال عصور الطغيان والوثنيات. وفي طور الرق لجملة المجتمعات الانسانية لم تقتصر تلك المحاولات ضد العبودية على مصر وحدها وإنما تكررت كثيراً وطويلاً في مختلف أنحاء تلك الجملة. وكان كثيرون من الهاربين من الظلم يلجأون في الجملة الانسانية لمنطقة البحر الأبيض المتوسط إلى الواحات والصحارى العربية حيث كانوا يشكلون هناك عصابات خارجة على النظام، عصابات تقوم بشن الغارات على قرى التخوم وقطع الطريق على القوافل والمسافرين وغيره من أعمال السطو والاغتصاب. وقد استفحل أمر هذه العصابات وازداد عددها بتكرار اللجوء بمرور الأيام حتى غدت على شكل جماعات كبيرة وقبائل. وهذه الظاهرة لها شبيهات وأمثلة لا يشك بواقعيتها. لنأخذ مثلاً أخبار الصعاليك بقيادة عروة بن الورد في كتاب الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، وكيف غدا الانتماء إلى هذه الجماعة موضع فخر على الرغم من أعمال السلب والنهب والقتل التي كانوا يرتكبونها. ذلك لأن الناس كانوا يتعاطفون معهم ويرون أن محركهم لارتكاب تلك الأعمال ضد الأغنياء الأسياد قادة النظام هو الفقر والحاجة الملحة مع جشع وطمع أولئك الأسياد. ثم إن عروة قائدهم ما كان من طبقة محرومة وإنما كان سيداً. وقد انضم إليهم كثائر على تلك الأوضاع الاجتماعية.
فقد قال فيه الخليفة عبدالملك بن مروان: «ما يسرني أن أحداً من العرب ممن ولدني لم يلدني إلا عروة بن الورد لقوله:

وإني امرؤ عافي إنائي شركة ... وأنت امرؤ عافي إناؤك واحد
أتهزأ مني إن هزلت وإن ترى ... بجسمي شحوب الحق والحق جاهد
أفرق جسمي في جسوم كثيرة ... واحسو قراح الماء والماء بارد

وقد مر معنا ذكر العابير والذين وردت أنباؤهم في مخلفات تلك العمارنة وفي آثار ما بين النهرين قبل موسى بقرون عديدة. وكان هؤلاء «جماعات من الرحل والأجانب والأشقياء المستعدين للانضمام إلى صفوف أي جيش لقاء أجر أو بدافع الحصول على الغنائم» كما ورد في تاريخ سورية ولبنان لـ «حتي». ومثل هذه العصابات المتجولة المخاطرة يمكن أن تشن الغارات على القرى والمدن عائثة في الأرض فساداً عندما لا تنتمي إلى جيش من جيوش المنطقة أيام السلم، كما جاء في تاريخ مصر إلى الفتح الفارسي لـ «برستيد». وهي، أي العصابات والجماعات المذكورة، تشكل ملاذاً أميناً لكل هارب مصمم على مشاركتها حياتها وشقاءها (ثمناً لتحرره من نظام الرق) إن لم تكن قد تكونت هي في الأصل من الهاربين كما أسلفنا. ويصفها غوستاف لوبون في «تاريخ الحضارات الأولى» تحت اسم «اسرائيل» الذي قلنا أن الفراعنة المتعصبين لوثنيتهم وفرعونيتهم كانوا يطلقونه على أقوام الأهليلج الخصيب على اعتبار أنهم أقوام الاله «أيل» أو عباده والذي كان الثوار الموحدون أعداء وثنية الرق يتخذونه اسماً لهم تيمناً به كما يتيمن الموحدون دوماً بلقب «عبدالله»، نقول يصف غوستاف لوبون العابير وبقوله: «كان بنو اسرائيل أقل من أمة، كانوا أخلاطاً من عصابات جائعة، كانوا مجموعة غير منسجمة من قبائل سامية صغيرة أفاقة بدوية تقوم حياتها على الغزو والفتح والجدب وانتهاب القرى الصغيرة حيث تقضي عيشاً رغداً دفعة واحدة في بضعة أيام، فإذا أمضت هذه الأيام القليلة عادت إلى حياة التيه

والبؤس».

إن القهر العبودي لكل وثنيات التاريخ الانساني يتعارض في جوهره مع النظام الذي يبيحه ويولد بداهة ردود الفعل المعارض أيضاً لذات النظام: في نظام الرق مثلاً تماثل القسوةُ في تسخير ضعفاء الأحرار وكل من هو أدنى في السلم الاجتماعي من قبل من هو أعلى القسوة في معاملة الأرقاء، وفي كثير من الأحيان تفوقها، الأمر الذي يتنافى مع حرية هؤلاء الناس الذين يشكلون غالبية المجتمع. ولا يختلف الأمر من حيث الجوهر في النظام الرأسمالي الاحتكاري الذي يعلن حقوق الانسان في عالم جملة مجتمعات انسانية تسحق فيها مليارات البشر ويشرد الناس ويقتلون لصالح قلة ضئيلة تقود هذا النظام. ونرى بالتالي أن انتشار عصابات «العابيرو» في عالم نظام الرق، لا سيما أيام أزمات هذا النظام، أمر طبيعي كشكل من أشكال ردود الفعل على القهر العبودي، كظاهرة طبيعية تترافق بداهة وبالضرورة مع ظاهرة القهر وتتممها في النظام المذكور. إلا أنه إذا كان في قوم موسى في التيه وفي عهد القضاة شبه بتلك العصابات، الموصوفة أعلاه بكلمة غوستاف لوبون، في عدد من النواحي، كالخروج مثلاً على النظام العام للرق وشن الغارات على مدن وأملاك سادة الرقيق وغيره، فإن هؤلاء الناس يختلفون جذرياً عنها من حيث كونهم ثواراً يجاهدون في سبيل دفع المجتمع الانساني إلى الأفضل ومن حيث أنهم نشأوا بنتيجة أعداد وتنظيم ثوري هادف، بنتيجة دعوة لها مدرسة خرجتهم إلى ميادين الثورة. ثم إن المؤرخ غوستاف لوبون، المنصف على كل حال، استعار كلمة «اسرائيل» لتسميتهم وقد أبدينا رأينا في مدلول هذه الكلمة وبالتالي نرى أنها تنطبق على أصحاب موسى عليه السلام كمجاهدين ولا تنطبق على عصابات العابيرو إلا في مفهوم الوثنيين الرجعيين الذين لا يميزون المجاهدين أصحاب عقائد التقدم من عصابات الجياع النهابين. وقد بينا في هذه الدراسة أن ظهور قوم موسى كثوار في عملية الخروج وعمليات يشوع بن نون والقضاة كان في الفترة القائمة بين نهايات الأسرة التاسعة عشرة وبدايات الأسرة العشرين، أي خلال القرنين المنقضيين بين أوائل القرن الثاني عشر وأواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد. أما عهد اخناتون الذي استفحل فيه أمر العابيرو فاستنجد ملوك فلسطين بهذا الملك ليرد عنهم هجمات تلك الجماعات الجامحة فكان في الفترة ١٣٨٠ ق.م - ١٣٦٢ ق.م. أي أن هناك ما يزيد على القرن ونصف سبق به العابيرو بشهرتهم عهد ظهور الثوار الموسويين على مسرح التاريخ. إلا أنه ليس من المستبعد، بل يمكن القول أنه كان من المؤكد أن أفراداً وجماعات من أمثال العابيرو، الذين أشرنا إلى أنهم وجدوا دوماً في المنطقة كمظهر من مظاهر العنف العديدة المتنوعة الأشكال المولدة بنظم الرجعية الوثنية، قد التحقوا بقوم موسى في سيناء وأثناء عمليات يشوع في سيناء وفلسطين وفي عهد القضاة. كما أن اسم العابيرو كاسرائيل قد أطلق على هذا القوم المجاهد، كرهاً له واستخفافاً به من قبل أعدائه الوثنيين، وتمجيداً وافتخاراً وتيمناً من قبل جماعاته.

وقد مر معنا فيما سبق من البحث أن انسان طور الرق لجملة المجتمعات الانسانية كان ينقسم إلى فئتين أساسيتين من البشر: انسان الحضر قاطن المدن ومؤسس الدول والامبراطوريات العبودية وانسان البداوة المتنقل دوماً باحثاً عن الرزق هنا وهناك من الأرض. وأشرنا إلى أنه كان هناك صراع دائم بين هاتين الفئتين من الانسان على الاستيطان في المناطق الملائمة للحياة، في مناطق المياه والزرع والصيد والمناخ السهل. فكان البدو مثلاً لا يتركون فرصة تمر دون محاولة الحلول مكان المدنيين في مناطقهم المريحة الغنية أو على الأقل غزو هذه المناطق ونهب خيراتها. وهذه الظاهرة كانت تبرز حتى في القرن العشرين عند اختلال حبل الأمن. وكان وما

يزال المدنيون المتقدمون على البدو مادياً يطلقون على هؤلاء أسماء تنطبق على أحوالهم المعيشية المتخلفة وتتضمن في غالب الأحيان معنى المَعَرَّةِ والتقبيح. فقدماء سكان مصر مثلاً كانوا يطلقون اسم «عابيرو» أو «خابيرو» على أولئك الناس الذين لا يستقرون في مكان وذلك في مجال التعيير. فقد نعتت زوجة العزيز يوسف بنعت العبد العابير وعندما غضبت عليه. فنقرأ مثلاً في الفصل التاسع والثلاثين من سفر التكوين: «فلما رأت (أي زوجة العزيز) أنه قد ترك (يوسف) رداءه بيدها وهرب خارجاً صاحت بأهل بيتها وقالت لهم انظروا كيف جاءنا برجل عبراني ليتلاعب بنا.. وضعت رداءه بجانبها حتى قدم مولاه (زوجها) إلى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام وقالت أتاني العبد العبراني الذي جئتنا به ليتلاعب بي...». ولكن ماذا تعني كلمة عبراني؟ إنها تعني على الأغلب عابر السبيل الذي لا يستقر تراه اليوم ثم يختفي في الغد، إنها تعني الرُّحَّلَ أو البدول الرحل وقد تعني أيضاً الثائر الخارج على القوانين. ومما يلفت النظر أن المشهور أن هذه الحكاية دارت في مصر في عهد الهكسوس الذين أتوا إلى هذا القطر من المنطقة التي أتى منها يوسف كبدو (كعابيرو) غلبوا المصريين وحكموا بلادهم، ثم نجدهم بعد أن أصبحوا مدنيين ينعتون غير المستقرين بنعت عابيرو، ولكن بمعنى الاستخفاف والتعالي.

وعلينا أن ننتبه جيداً إلى أن الحركة العامة لمجتمعات الرق كانت تتأثر بالتفاعلات الحاصلة بين تلك الفئتين من الناس: المدنيين والبدو، على أن لا نؤخذ بالنظرة الضيقة لكل من هاتين الفئتين إلى الأخرى، لا سيما منهما نظرة فئة المدنيين المتعالية إلى البدو على أن هؤلاء مجرد أناس متخلفين. فقد رأينا أن المدني كان يتحول إلى بدوي تحت ضغط ظروف نظام الرق فكان يذهب إلى المعاقل طلباً للحرية، كما أن البدوي كان يتحول إلى مدني بقوة السيف عندما كانت معاقله في الصحارى والجبال والغابات تفيض به فتقصر مواردها عن سد حاجاته الضرورية للبقاء على قيد الحياة. وخلال هذا التفاعل كانت الحياة الاعتيادية تجري بكل تفاعلاتها الأخرى صاعدة بالمجتمع الانساني ككل عبر مراحل التاريخ.

## الوثنية اليهودية

إن اليهودية التي آلت إليها دعوة موسى عليه السلام تعطينا المثال التام لانحدار ورثة الثورة إلى الانخراط في النظام المعادي لجوهر تلك الثورة التي ورثوها. فبعد صراع طويل مع الوثنية دام ما يقرب من قرنين، وجدنا ورثة الثورة الموسوية يقومون بحرف هذه الثورة عن هدفها الأساسي، وهو تحريض وتنظيم ودفع الانسان ليجاهد في سبيل تقويض نظام الرق الذي غدا في تلك الأيام سداً في طريق ارتقاء جملة المجتمعات الانسانية إلى الأطوار العليا. وقد جمدوا عقيدة موسى وسلبوها الحياة بتحويلها إلى مجرد طقوس وغيبيات تغطيها شعائر صاخبة يضيع من خلالها الناس في المتاهات حيث تنعدم فائدة المستضعفين الذين يقعون في شباك عبودية جديدة. وانتهى اليهود إلى الانخراط في النظام الذي ثار عليه موسى ومارسوا كل ما كان يمارسه الوثنيون الآخرون من استرقاق وأكل حقوق الضعفاء وغير هذا من أشكال ظلم بني الانسان. وأصبحت اليهودية في عهد السيد المسيح بالصورة التالية التي نجدها مثلاً في انجيل القديس مرقس: «.. فدخل الهيكل (السيد المسيح) وجعل يخرج الذين يبيعون ويشترون في الهيكل وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام.. وكان يعلمهم قائلاً: أليس مكتوباً أن بيتي بيت صلاة يدعى لجميع الأمم وأنتم جعلتموه مغارة لصوص...».

وفي عهد الثورة الاسلامية العظمى تحالفت اليهودية مع الشرك ضد الاسلام الموحد. فقد سأل أبو سفيان (سؤال من يعرف الجواب سلفاً) حيي بن أخطب وهو من سادة اليهود فقال: هل دين محمد خير من ديننا؟ فأجاب حيي: كلا إن دينكم خير من دينه، وأقول هذا وأنا من أهل الكتاب. وقد أشار القرآن إلى هذا الأمر في سورة النساء:

**﴿ألم تر إلى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾.**

لقد أفرغت اليهودية وحدانية الدعوة الموسوية من مضمونها الأساسي، وهو الأمر بالسعي الدائب لتحقيق المساواة والتعاون والتكامل والتكافل بين الناس جميعاً في كل ظرف مادي، واتخذت إلها خاصا بها من دون البشر الآخرين، إله موسى وهرون، إلهاً لا يهتم إلا بسلالة «اسرائيل» المزعومة التي ركبتها بخيالاتها المتعالية الانعزالية من مختلف أصناف البدو «العابيرو» بعد أن استولدت كل هذه الأصناف بأوهامها وغيبياتها من صلب رجل واحد هو ابراهيم الخليل وجعلت من سلالاتهم العديدة المتفرقة سلالة واحدة طولها الزمني عدد من القرون الطويلة.

إن العابيرو، أوقدماء العبرانيين، كانوا جماعات من الناس وُجدت على الدوام قبل خروج موسى بقومه من مصر في الوقت الذي ما كان، بطبيعة الحال، لليهود وجود في الدنيا. وقد تبين بآراء معظم الباحثين ان موسى مصري وأن أتباعه الذين خرجوا معه بمعظمهم مصريون لا علاقة لهم أبداً بالعبرانيين. وهؤلاء معروفون جيداً ولهم هوية محددة بكونهم ينتمون إلى جملة مترابطة من الأحداث الواقعية أو الخيالية في أماكن محددة هي مصر وسيناء وجزء من فلسطين. أما «العابيرو» فكانوا جماعات غير محددة لا في المكان ولا في الزمان إلا بأخبار غامضة متقطعة في غابر الزمان والأيام. وقد نعت وثنيو الرق والرجعيون الثوار الموحدين الذين تصدوا لهم وجاهدوا ضد نظامهم «بالعابيرو» وبعبدة «أيل» للانتقاص منهم وشتمهم، كما نعتوا أيضاً بهذه النعوت ذاتها محبي الحرية، وقد مر معنا ذكر هذا الأمر أعلاه. فتكونت في أذهان المنحرفين من ورثة الثورة الموسوية تلك الخرافة الاسطورية التي جمعت وأرجعت أصول ثوار كل ثورات المنطقة من عهد ابراهيم إلى عهد موسى إلى أولئك العابيرو وجعلت منهم جميعاً، الثوار والعابيرو، سلالة واحدة تعود إلى أب واحد هو ابراهيم الخليل. ثم إن كهنة اليهودية واضعو التوراة ضخموا هذه الخرافة فجعلوا من جماعتهم «شعباً مختاراً» تدور حوله قصة الخليقة وقيام الكون بكليته. وكان هذا الأمر يخدم بداهة طموحات أسياد الرقيق الوثنيين اليهود المتسترين بقشرة رقيقة من بقايا الموسوية التي حرفوها وجمدوها ليحتكروا «لبن وعسل» فلسطين الذي نشير إليه دوماً بكونه محط أنظار كل الطامعين من أهل المنطقة ومن الغرباء عنها طوال التاريخ الانساني. وهنا يجدر بنا أن نشير إلى «سخافة» واحدة من أكوام سخافات أولئك المزورين وهي: أن عدد الخارجين من مصر بقيادة موسى كان بزعمهم يبلغ ستمائة ألف نسمة وتقول اسطورتهم أنهم كلهم من سلالة رجل واحد هو ابراهيم عليه السلام. فإذا أضفنا إلى هذا أن عدد يهود هذه الأيام الذين تنسبهم أكاذيبهم أيضاً إلى ذلك الرجل الفرد ابراهيم هو خمسة عشر مليوناً لكان في النتيجة عدد سكان العالم في عهد موسى عشرات المليارات وفي أيامنا هذه مئات المليارات. ذلك لأن ابراهيم عليه السلام كان فرداً واحداً من ملايين الناس كانوا ينتشرون في العالم في زمنه.

وقد لاقت سلالته من المكاره والصعوبات وتعرضت بزعمهم هم أنفسهم للملاحقات والمذابح بما لم تتعرض له أي سلالة أخرى لفرد آخر من أفراد الانسانية المعاصرة له فيكون تعداد هذه السلالات يشبه على الأقل ذلك الذي يعدون به السلالة المزعومة لابراهيم عليه السلام.

ويبالغ اليهود الوثنيون بالاستخفاف بعقول الناس، ويروج لأوهامهم الصهاينة المعاصرون من يهود وغير يهود فيبلغوا الحضيض في الافتئات على بديهيات الأمور بجعلهم المتأخر سبباً للمتقدم بتقريرهم ما يشبه جريان الماء بالراحة من الأسفل إلى الأعلى، بادعاء أن لغتهم العبرية مثلاً، التي تولدت بطبيعة الحال بنتيجة تكونهم كجماعة في الوسط الكنعاني الذي عاشوا فيه بعد الخروج من مصر، هي أصل واللغة الكنعانية نتيجة له يطلقون عليها بمغالطة وقحة اسم العبرية القديمة. إن الأستاذ «درايغر» محاضر اللغة العبرية في جامعة اكسفورد بعد أن اعترف بمقال له في دائرة المعارف البريطانية بأن كلمة «عبري» صاغها الحاخامون في وقت لاحق واعتبروها هي وكلمة «يهودي»، بمعنى واحد عاد في ذات المقال وحاول طمس وجود الكنعانية باختراع تسميات لها مثل «اللغة الشبيهة بالعبرية» و«اللغة السامية الغربية». ثم يأتي الكتاب اليهود فيسمون اللغة الكنعانية الأم «عبرية التوراة»، مع أن التوراة ذاتها تعترف بهذه اللغة وتسميها «شفة كنعان». هنا علينا أن نلفت الانتباه إلى أن الكنعانيين ما كانوا من العابير و أو البدو الرحل، وإنما كانوا سكان مدن وكانوا في كثير من الأحوال ضحايا هجمات العابير وعلى مدنهم، كما ذكرنا سابقاً في هذا البحث. كما أن العابير ومن جهة أخرى كانوا بحسب أصولهم ومرابعهم في منطقة الأهليلج الخصيب يتكلمون بلهجات مختلفة ليست بالضرورة كنعانية. فالعبرية التي ظهرت بعد دعوة موسى بزمن طويل لا يمكن أن تكون كل تلك اللهجات السامية التي كانت جماعات العابير وتتكلم بها، كما لا يمكن أن تكون أصلاً للهجة سبقتها هي الكنعانية كي يصح بالتالي تسمية الأخيرة «عبرية التوراة». والمعقول الذي يتفق مع المعطيات الحسية في الآثار المكتشفة هو أن هذه العبرية كلهجة سامية تكونت بتعايش جماعة موسى وسلالاتهم، ومن انضم إليهم من الهاربين من قهر نظام الرق ومن البدو وغيرهم المشار إليهم فيما سبق من هذا البحث، مدة طويلة من الزمن وكانت في بادىء الأمر ولمدة طويلة لهجة عامية لم ترتق إلى مستوى اللغة المكتوبة الأدبية إلا بعد أن نضجت في وسط اللغة الكنعانية. أي أنها نشأت وتطورت بعد الخروج من مصر خلال تكون اليهود في أوساطهم الكنعانية، تماماً كما نشأت لهجة اليدیشن خلال تكون اليهود الجدد في أوساط الأقوام الأوروبية الشرقية. وبالتالي فإن الاسم الذي ينطبق على واقع الحال لتلك اللغة يجب أن يكون «اليهودية» وليس «العبرية» كما جرت به العادة.

يقول الأستاذ مصطفى مراد الدباغ في كتابه «بلادنا فلسطين»: «كانت المصرية القديمة منتشرة في جميع المدن الفلسطينية المشهورة وخاصة في بيسان، كما كانت اللغة الكنعانية منتشرة في كثير من مدن مصر الشمالية. واللغة المصرية التي كان يتكلم بها المصريون القدماء قريبة جداً في أصول مفرداتها من لغات البربر وافريقيا الشرقية كما تشبه اللغات السامية في كثير من قواعدها. وهذه اللغة تقلبت في أطوار عدة..». ونقرأ في الموسوعة بريتانيكا حول هذا الموضوع: «من الواضح أن الكنعانية كما هي مدونة بالنصوص المصرية ـ البابلية القديمة، على الرغم من أنها لم تكن شكلاً من العبرانية، أعطت هذه الأخيرة الكثير من خصائصها.. وإن الأرامية ساهمت بعض المساهمة في تكوين اللغة العبرية.. وعنصر آخر يأتي إلى العبرية من الأكادية والبابلية الآشورية.. فعناصر من لغات سامية متعددة ساهمت في تكوين العبرية..».

ويقوم كثير من المحللين بتقريب كلمتي عبري وعربي على اعتبار أن الواحدة منها تتولد من الأخرى بطريق القلب فيستنتجون من ذلك القرابة الوثيقة إن لم يكن التطابق بين الانسان العربي والانساني العبري. والواقع أن الكلمتين من لغة واحدة وجذر واحد ولكن مدلولها التاريخي ليس ببساطة مدلولها اللغوي الواحد. فالعبري كما مر معنا هو الاعرابي (البدوي) في مفاهيم زمان موسى وما قبل. ولا تتضمن هذه المفاهيم بقية الساميين من أهل المدن والمزارع. وقد قلنا أن اليهود هم غير العبريين (العابيرو) وأن فئتهم نشأت وتطورت في البيئة السامية، الحضرية والبدوية، وتكونت لها في هذه البيئة لهجة خاصة هي تلك العبرية أو اليهودية التي أضيفت إلى بقية اللهجات السامية القائمة في ذلك الطور الذي كانت تتفاعل فيه مختلف روافد الأمة العربية قبل توحدها بقيام هذه الأمة بشكل محدد. وما انفكت هذه الفئة الصغيرة، منذ أن انحرف بها قادتها عن الدعوة الموسوية وعزلوها عن بقية الجماعات السامية أولاً، ثم عن المجتمع الانساني في النتيجة بدعوى أنها «مختارة»، عن الانحدار نحو خدمة جباري جملة المجتمعات الانسانية مثل احتكاريي أمريكا حالياً وأشباههم في الماضي من الذين ظلموا الانسان وامتهنوا كرامته واستعبدوه بشتى أشكال الاستعباد. ولم تتوقف أيضاً اللغة اليهودية (العبرية اصطلاحاً) عن الابتعاد عن واقع الحياة بعدم استعمالها حتى من قبل أصحابها الذين تكلموا دوماً كل لغات الأقوام التي حلوا بين ظهرانيها، وهي على كل حال ليست سوى لهجة من اللهجات السامية لفئة محدودة جداً من الناس. وفوق كل هذا لم يبق اليهود في نطاق الأقوام السامية، بل اختلطوا بالعديد من الأقوام غير السامية بحيث أصبح غير الساميين منهم أضعاف الساميين بينهم، وتفرقوا بأكثريتهم كأقليات ضئيلة جداً هنا وهناك في شتى أوطان العالم. أما العربي فهو أشمل تاريخياً وأكثر حداثة ويتضمن الانسان السامي مدنياً كان أم بدوياً وكل انسان انصهرت سلالته في النتيجة في الأمة العربية خلال تكونها: إنه صيرورة السامي بنتيجة تفاعل مختلف أقوامه بعضها مع بعضها الآخر ومع أقوام غير سامية رفدته. والعرب يشكلون أمة واضحة المعالم لها وطن محدد لا ينكره سوى المعتدين الذين منهم الصهاينة بكل ألوانهم وأجناسهم وأديانهم والذين سيُردون كما رُدَّ غيرهم طوال تاريخ أمتنا. وقد تطورت اللغة العربية في الجزيرة العربية، ونمت وانتشرت، بحيث صححت وشملت كل اللهجات السامية الأخرى وحلت محلها. ثم أتى الاسلام فزاد من نموها وشمولها وتوحدها وانتشارها بين كل روافد الأمة العربية حول البحر الأبيض المتوسط، كما دفعها لتكون لغة عالمية ولغة رديفة للغات الأقوام الاسلامية من غير العرب وكان من نتيجة ذلك أن تضاءل انتشار اللهجات السامية الأخرى أمام اللغة العربية واختفى بعضها تماماً وانكمش بعضها الآخر وانحصر استعماله في أغراض ضيقة كالصلوات في الأديان السامية غير الاسلامية وما شابه. ثم إن المكتبة العربية والتراث الحضاري العربي لا يقارنان بأي حال من الأحوال بالتراث اليهودي. بل إن جل هذا التراث الأخير ما هو إلا جزء من التراث الحضاري العربي وقد ولد وترعرع وتفتح فيه. وبعد، إذا كان العربي لغوياً قلباً للعبري والعكس بالعكس، فهو تاريخياً الشامل الذي تطورت إليه بطبيعة الحال كل روافده من سامية وغير سامية وخاصة منها التي شكلها العابيرو وجماعة موسى وسلالاتهم التي لم تغادر أوطانها الأصلية التي هي أقطار الأمة العربية إلى أوطان أخرى لتصبح هناك روافد لأمم تلك الأوطان بمضي القرون.